المرأة بين الجاهلية والإسلام

أولاً : المرأة فى الجاهلية

كيف كان حال المرأة قبل نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ الذى أرسله الله سراجاً منيراً هاديًا إلى أقوم سبيل .

لقد كانت المرأة قبل الإسلام فى بلاد العرب وفى غيرها من بلاد العالم محرومة من حقوقها مَجنيًا عليها دائمًا ، لا يحافظ أحدعلى كرامتها ولا يأبه بمشاعرها مَمّا أثر على حياتها وأفقدها شخصيتها ، حتى وصل الحال فى اليونان مثلاً أن المرأة كانت تدخل ضمن ممتلكات ولىّ أمرها .

فهى قبل الزواج مِلْك أبيها أو أخيها أو من يتولى أمرها .

وبعد الزواج تكون ملكًا لزوجها ، فليس لها تصرف فى نفسها ، وهى لا تملك ذلك قبل الزواج ، ولا بعده .

إنها تُبَاع لمن يدفع ثمنها ، والذى يقبض الثمن هو ولى الأمر .

أما فى القانون الرومانى فقد كانت المرأة تُعَامل مثل الأطفال أو المجانين فليس لها أهليّة ولا شخصية ، وكان رب الأسرة من حقه أن يبيع من يشاء من نساء أسرته أو ممن هُنَّ تحت ولايته ، وتظل المرأة خاضعة لسلطة ولى أمرها من المهد إلى اللحد ، ولولى أمرها كذلك أن يبيعها أو ينفيها أو يعذبها . . أو حتى يقتلها .

وتعتبر المرأة عند اليهود فى منزلة الخادم ، وتحرم من الميراث إذا كان للميت ذكور .

بل إن قوانين الأحوال الشخصية عندهم تنص على أنه إذا توفى الزوج ولم يكن له ابن ذكر فإن أرملته تصير زوجة لشقيق زوجها ، أو لأخيه من أبيه . ولا تحل لغيره إلا إذا تبّرأ منها ورفض أن يتزوجها .

وليس للنساء قيمة فى القانون الصينى ، ويجب أن تُسند إليهن هناك أحقر الأعمال .

وفى القوانين الهندية ليس من حق المرأة أن تريد أو ترغب ، فهى تابعة فى طفولتها لوالدها ، وفى شبابها تابعة لزوجها ، فإذا مات زوجها تصير تابعة لأولادها .

وفى إنجلترا كان الرجال يبيعون زوجاتهم ، فيما بين القرنين الخامس والحادى عشر الميلاديين .

ولقد وضعت محاكم الكنيسة قانوناً يعطى الزوج الحق فى أن يعطى زوجته لرجل آخر لفترة محددة بأجر أو بدون أجر ، وظل هذا القانون مطبقاً مدة طويلة قبل أن يُلغى .

وفى عام ١٩٣٣م باع رجل إنجليزى زوجته مقابل مبلغ خمسمائة جنيه إسترلينى ، وألغى القضاء هذا البيع .

ولم يكن للمرأة فى أوربا كلها حتى فترة قريبة حق الحضور أمام القضاء ، أو حق إبرام العقود ولا تملك البيع أو الهبة بدون مشاركة زوجها فى العقد بموافقة مكتوبة .

وقد كان الزوج فيما قبل ١٩٤٢هو المتصرف فى أموال زوجته . وهذه كلها مجرد أمثلة توضح مدى ما كانت تعانيه قبل الإسلام .

فإذا كانت المرأة فى أمريكا وأوربا قد حصلت أخيراً على حقوق مساواة ، فإن الإسلام هو أول من أعطى المرأة حقوقها ، وأعاد إليها كرامتها ، وأعطاها الحرية فى أن ترفض أو تختار الرجل الذى ستتزوجه ، فلا يتم زواج الفتاة دون استئذانها وموافقتها وبشهادة شاهدين إن المرأة المسلمة لها شخصيتها القانونية المستقلة مثلها تماماً مثل الرجل لقد وضع الإسلام أسس هذه المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات بضوابط دقيقة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً فيكفى المرأة المسلمة فخراً أن تُنسب إلى الإسلام .

ثانياً : تكريم الإسلام للمرأة

إن الإسلام حين جاء إلى العالم رفع من مكانة المرأة وأعطاها حريتها وكرامتها وشخصيتها المستقلة ، وساوى بينها وبين الرجل فى الحقوق والواجبات .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات : ١٣)

لقد كفل الإسلام للمرأة حرية الاختيار فى العقيدة والزواج وسائر أمور الحياة ، وكفل لها الحق فى التملك والشراء والبيع والهبة ، وجعل لها نصيبًا معلوماً فى الميراث .

وحافظ على كل حقوقها وقدَّرها أمّا وأختًا وزوجة وابنة ، وجعل لها مكانة عظيمة .

فالمرأة المسلمة تشارك زوجها فى الحياة وتعينه وتشير عليه وتربّى أولادها التربية الإسلامية الصحيحة .

وبقضاء الإسلام على الرّق كفل لها الكرامة والحق فى أن يكون لها زوج وأسرة ، وأعطاها الإسلام كذلك حق طلب الطلاق عند الضرر « ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) وقول رسول الله ﷺ « لا ضرر ولا ضرار» .

وحافظ الإسلام على حياة المرأة بمحاربته ظاهرة وأد البنات وهى دفنها وهى حية من كراهته لها أو غيرته عليها وهذه كانت منتشرة فى الجاهلية .

وكان فى ذلك أعظم درس للناس يعلمهم أنَّ لا فرق بين ذكر وأنثى وأنّ التفاضل بينهما لا يكون إلا بالتقوى والعمل اصالح .

ومن مظاهر تكريم الإسلام للمرأة أن الحق سبحانه يوصى بالوالدين ثم لا يذكر إلا لأم .. مثلاً فى سورة يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ

﴿ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(الأحقاف : ١٥)

وفى سورة لقمان يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(لقمان : ١٤) نجد أن الله سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين ، ثم ذكر الأم وحدها دون الأب .

يأتى هنا بعض المستشرقين ويسألون : كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يوص إلاّ بالأم ثم ذكر فى أول الآية الأم والأب ، وفى آخر الآية الأم والأب دون أن يوصى بالأب ثم من يوصى الله سبحانه فى هذه الآية ؟ هل هو يوص الطفل وهو رضيع فى حالة الحمل والولادة ، وهل يفقه هذا الطفل شيئًا ؟ وهل يقرأ القرآن أو يعقل ؟ هل يذكر الطفل شيئًا عن هذه المرحلة ؟

إذن من يخاطب القرآن هنا ؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع فهو يخاطب إنساناً لا يعقل ، وإذا كان يخاطبه بعد أن كبر فهو يخاطب إنساناً عن فترة لا يتذكرها ولا يعرفها ؟

نقول له : إن الحق سبحانه وتعالى فى توصيته بالأم قد اختصها ؛ لأنها تقوم بالجزء غير المنظور فى حياة الابن ، وفى الحمل والولادة ، وحتى يبلغ ويعقل .

الأم هى التى تقدم كل شىء ، هى التى تسهر ترضعه ، وهى التى تحمل ، وهى التى تلد ، فإذا كبر الطفل وعقل فمن الذى يجد أمامه ؟

إنه الأب إذا أراد شيئاً فإن أباه هو الذى يحققه له ، وإذا أراد أن يشترى شيئاً لعبة جديدة ملابس جديدة ، وإذا أراد مالاً كل هذا يقوم به الأب .

إذن فضل الأب ظاهر أمامه ، أما فضل الأم فهو مستتر بالنسبة للطفل ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب . . لماذا ؟

لأن الطفل حينما يحقق له أبوه رغباته يحس بفضل أبيه عليه ، لكنه نادراً ما يقدر التعب الذى تعبته أمه فى حمله وولادته وإرضاعه والسهر عليه وهو يزيد أضعاف أضعاف ما يقدمه أبوه .

ومن هنا جاءت التوصية بالأم ، حتى أن رسول الله ﷺ قال : أمك ثلاث مرات ثم قال أبوك ولكن ما هو الهدف من هذا التذكير إذا كان الإنسان لا يعقل هذه الفترة من حياته لا يتذكرها مطلقاً ؟

إن الهدف هو أن يرى ذلك على غيره ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتعبن وكيف يعانين ويقاسين وكيف يسهرن على أطفالهن وماذا يتحملن من مشقة وعندما يراه على غيره يدرك أنّ هذا قد حدث ويحس به ولذلك يردّ الجميل .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم ، ويريد أن يوصينا بالاثنين معاً الأب والأم ولكنه يوصينا بالأم ويخصّها بالذكر أكثر لأن تعبها غير واضح فى عقل الابن بينما ما يفعله الأب واضح وظاهر أمام الطفل .

هكذا نرى تكريم الإسلام للأم وتقدير دورها فى الحياة حتى أنّ رسول الله ﷺ يقول : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

ثالثاً : حرية المرأة

للرجل مهمته فى الحياة ، وللمرأة مهمتها كذلك وهناك خصائص مشتركة بين الرجل والمرأة ، وهناك نواحٍ تختلف فيها مهمة الرجل عن مهمة المرأة .

أما الخصائص المشتركة فهى ما يُصلب من الجنس كإنسان بالنسبة إلى دين من الأديان .

فحرية الاعتقاد مكفولة لكل من الرجل والمرأة ، فالمرأة مطلوب منها أن تعتقد العقيدة التى تقتنع بها ، والرجل كذلك ، ولا يمكن لرجل أن يفرض عقيدته على امرأة .

ولقد بين الحق سبحانه وتعالى هذه القضية فى كلامه عن نوح ولوط عليهما السلام إذ يقول : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾** ﴾ (التحريم : ١٠) .

المفروض فى الأنبياء أن يهدوا الناس ، ومع ذلك لم يستطع نوح ولوط عليهما السلام أن يحملا زوجتيهما على اتباع منهج الله تعالى .

إذن فللمرأة ما تراه صائباً أو تقتنع به ، كإنسان له حرية التفكير والاعتقاد .

وبعد ذلك يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً للقضية المقابلة : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ** ﴾ ففرعون الذى ادّعى الألوهية واستعبد الناس وأذلهم لم يستطع أن يجبر زوجته على الاعتقاد فى ألوهيته إنها آمنت برب موسى عليه السلام عدو فرعون: ﴿ **إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ (التحريم : ١١) .

إذن فأولى الخصائص التى تهم الدين هى حرية الاعتقاد . إن للمرأة أن تعتقد ما تشاء لأن هذا الاعتقاد سيلزمها بمنهج ، فإن لم ترتبط بالعقيدة باختيارها يكون إقبالها على المنهج غير مأمون . إن أجبرت على اعتقاد فهى تُقبِل على منهج ذلك الاعتقاد

مُكْرَهة أى : تُقبل ما رآها القانون أو المُكْرِه ، لكن إذا خلت إلى نفسها يمكن أن تتحلل من ذلك المنهج .

الصفة المشتركة بين الرجل والمرأة إذن هى حرية المعتقد ، حرية تعقُّل الأشياء وحرية الحكم على الأشياء وحرية التفكير .

إن الحق سبحانه وتعالى يحكى لنا فى كتابه العزيز قصة بلقيس ليوضح لنا أن المرأة لها الحق فى أن تُعمِل عقلها تعقل الأمور وتشير وتستشير إنه يعطينا صورة من عقل المرأة ورجحانه .

لقد أرسل سليمان عليه السلام كتابه « رسالته » إلى بلقيس وقومها مع الهدهد فماذا كان موقفها ؟ قالت : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (النمل : ٣٠ ـ ٣١) وقالت : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فماذا قال لها جيشها ؟ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ (النمل : ٣٣) .

أى أن هذه مسألة سياسية ونحن جيش قوى تأمرينا بالحرب فنحارب ، ولكنكِ أنتِ التى تقدرين ماذا نعمل فماذا نصنع ؟

قالت سأرسل إليه هدية فإن قبلها فهو طالب دُنيا .

إذن المرأة (بلقيس) يمكنها أن تفكر التفكير السليم الذى تعرف به طبيعة سليمان عليه السلام . أهو ملك من الجبارين أم أنّ له مهمة أخرى ؟

وأرسلت بلقيس الهدية فماذا كان من سليمان عليه السلام ؟ لقد قال : ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل : ٣٦)

فقالت بلقيس نذهب إليه إنه إنسان لا يريد المال إذن له دعوة ومنهج .

وقال سليمان « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » وجاء العرش إلى آخر القصة .

وهنا ننظر إلى عقلية المرأة كيف استطاعت أن تقف الموقف الدقيق ، وتعبر التعبير

(الدبلوماسى) « كأنه هو » إن العرش عرشها ، ولكنها مسألة غريبة فى كونها تركت عرشها فى بلادها وتأتى إلى بلاد سليمان عليه السلام لتجد عرشها أمامها فماذا تقول ؟ لقد قالت « كأنها هو » .

هذه إذن صورة من صور عقلية المرأة توضح أن المرأة المسلمة تستحق أن تتمتع بحرية التفكير والاعتقاد لأن لها عقلاً ولأن لها شخصيتها القائمة بذاتها .

ويخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه اصطفى بعض النساء مثل الرجال تماماً فقد اصطفى سبحانه وتعالى مريم عليها السلام ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ (آل عمران : ٤٢) .

واصطفى أم موسى وكلفها بأشياء ففعلتها ﴿ **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ** ﴾ (طه : ٣٩) . فالمرأة إذن من حيث كونها جنس محلٌّ للاعتقاد الحرّ ومحل لاستعمال عقلها فى الأمور مثلها مثل الرجل ، وهى محل لاصطفاء الحق عز وجل .

ومحلّ لأن يخصها الحق سبحانه وتعالى بشىء . لقد أعطى الإسلام المرأة حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار .

ولكن يجب أن نفهم الحرية على وجهها الصحيح فالحرية ليست فوضى وإنما هى نظام .

إذا اعتقدت شيئاً فالحرية أن أتقيّد بمنهج هذا الاعتقاد ، فليست المسألة كلاماً يقال وإنما الحرية الحقيقية هى كلام مسئول يؤدى إلى نظام سليم وعمل صالح .

إنّ الحرية الحقيقية هى حرية نسبية فليست هناك فى أى مجتمع من المجتمعات شىء اسمه « الحرية المطلقة » وليس هناك على الأرض إنسان يستطيع أن يقول أنا حرٌّ حرية مطلقة . .

لا نقول له : أنت كاذب . . لأنك لا تستطيع أن تمارس حرية مطلقة دون أن تعتدي على حريات الآخرين ، وهؤلاء الآخرون لن يتركوك تفعل ذلك .

نقول له : هل تستطيع أن تستمع إلى الراديو بعد منتصف الليل بصوت مرتفع دون أن تضايق الآخرين ؟

أنت إن فعلت ذلك أعطيتهم الإذن لكي يفعلوا معك نفس الشيء ويُضايقوك وأنت نائم بأصوات أجهزة الراديو التى عندهم ، وساعتها لن تكون حُرًا فى أن تنام وقتما تشاء .

ونقول له : هل تستطيع أن تدق شيئًا أو يصدر العمال الذين جلبتهم صوتاً أو ضوضاء ؟ وهل يستطيع إذا دخلت أحد البنوك أو المحال التجارية وكان هناك صف من الناس يقفون أمام الموظف هل تستطيع أنت أن تذهب لتقف قبلهم لتكون أول الصف ؟ ونقول له : هل تستطيع أن تترك سيارتك فى وسط الطريق أو فى مكان ممنوع الانتظار فيه ؟

وهل تستطيع أن تتجاوز بسيارتك السرعة المسموح بها ؟

وهل تستطيع أن تمشى فى الشارع بدون ملابس ؟

وهل تستطيع أن ترتكب فعلاً فاضحاً أمام الناس ؟

هل تستطيع أن تفعل أى شيء تريده فى أى وقت تريده ؟

كلا إنك لا تستطيع شيئًا من ذلك إلا إذا كنت تعيش فى جزيرة خالية من الناس تعيش فيها وحدك .

إنك ما دمت تعيش فى مجتمع ومعك ناس فلابد أن تحترم حرياتهم لكى تضمن أنهم سوف يحترمون حريتك .

وهكذا الأمر بالنسبة للمرأة ليس لها أن تعتدى على حريات الآخرين ليس لها أن تفتنهم بمظهرها المثير ولا بصوتها الخاضع المتفنج ولا بثوبها الكاشف الواصف ، ليس لها أن تلهب غرائز الرجال ، لأن ذلك اعتداء على حريات الرجال فى أن يمشوا فى الطريق دون أن يقوم أحد بإثارتهم وإلهاب غرائزهم وإخراجهم عن هدوئهم وطبيعتهم .

إن حرية المرأة يجب أن تكون حرية طاهرة . . . حرية إسلامية .

رابعاً : مهمة المرأة فى الحياة

فى قصة آدم عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى لآدم وحواء يُحذّرهما من الشيطان قال عنه إنه « عَدوّ لك ولزوجك » إذن فالعداوة موجودة مسبقاً لأن إبليس رفض السجود لآدم كما أمره الله يقول الحق سبحانه لآدم وحواء ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ (طه : ١١٧) .

هنا الخطاب للإثنين آدم وزوجه ، وكان المفروض من الناحية الأسلوبية والخطابية أن يقول القرآن « فتشقيا » لكن القرآن عبر التعبير السليم الموحى التعبير الذى يعطى كل واحد منهما مهمته « فتشقى » أى أن الشقاء لآدم وحده فكأن آدم خلقه الله سبحانه للكفاح ومواجهة صعوبات الحياة ، أما حواء فقد خلقها الله سكناً لآدم .

إذن فآدم يتحرك ويعمل ويكد ويكدح فى الحياة ثم يأتى ليهدأ عندها .

إنها هى مصدر الحنان والعطف الذى يمسح بيده على كل متاعبه لتزول ، فيستأنف الحياة بعد ذلك بشىء من النشاط .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

إذن فالمهمة الأساسية للمرأة هى أن يسكن إليها الرجل ، وكلمة (يسكن إليها) كلمة معبرة ، فمعنى السكن إليها أن الرجل كان متحركاً يكدح ويعمل ويأتى ليسكن عندها . وبعد ذلك تجىء المهمة الثانية : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

وبعدذلك يجىء البنون والحفدة . يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل : ٧٢) .

إذن فمهمة المرأة هى أن يسكن إليها الرجل . وذا قدّرت المرأة هذه المهمة فإنها

تجدها تستوعب كل وقتها ، إنها تهيء من أجله وتعدُّ له ما يرتاح به من عناء العمل ، فيأتى ليجد بيته ساكناً وهادئًا ومستقرًا .

كل أموره منظمة ومرتبة . بعد ذلك يأتى الأولاد والأحفاد وتستمر الحياة بهذه الطريقة التى سَنَّها الحق سبحانه وتعالى وأرادها منذ بدء الخلق . إنَّ عمل الرجل هو التعامل مع أجناس الحياة .

فإذا كان زارعاً فهو يتعامل مع الأرض وأدوات الزراعة ومتطلباتها وما إلى ذلك ، أى إنه يتعامل مع أشياء ، وهذه الأشياء كلها مخلوقة لخدمة الإنسان ، لأن الإنسان هو أرقى وأرفع الأجناس كلها .

ومهمة المرأة هى التعامل مع ذلك الجنس الراقى وهو (الإنسان) كزوج ، وكجنين. كجنين فى بطنها ، وكوليد تحمله وتعطى له المُثل والقيم وتربيّه .

إذن فالرجل يتعامل مع الأشياء التى هى أقل من الإنسان أهمية ، أما المرأة فتعاملها الأساسى هو مع الإنسان لذلك فمهمتها أعظم وأرقى من غيرها .

إننا حين ننظر إلى طفولات الحيوانات نجدها كلها قصيرة المدة وأطول طفولة هى الإنسان .

والطفولة هذه هى ميدان عمل المرأة فما دامت الطفولة زادت فإن المهمة تكون أعظم .

والحيوانات كلها مهمتها أقل من مهمة الإنسان ، وطفولة الإنسان تتناسب مع مهمته فى الحياة ، ولأن مهمته عالية ، فهو أرفع الأجناس على الأرض ، لابد أن تكون فترة تكوينه (طفولته) طويلة لكى يستطيع أن يمتلىء بالمبادىء والقيم والأشياء التى تعينه على مهمته فى الحياة .

من الذى يتعامل مع الطفل ؟ إنها المرأة . . فالرجل يخرج إلى عمله ويبقى الطفل مع أمه إلى أن يذهب إلى المدرسة فى سن السادسة مثلاً . . وإلى سن السادسة يكون عقل الطفل فارغاً ، والمُثُل والقيم تبدأ تملأ عقله فمن الذى يملؤه ؟ إنها المرأة فالأم هى التى تكون مع الطفل فترة طويلة فإذا كانت الأم مشغولة بأى عمل من الأعمال فإنه

ستتركه لمن يرعاه خادمة مثلاً ، والخادمة قد تكون أمينة ولكن لا يمكن أن يكون لها قلب الأم .

قد تكون الخادمة أمّاً وتحنو على أطفالها وتعطف عليهم ولكنها مع أطفال غيرها .

قد تعطف عليهم ، ولكنها لن تصل أبدًا إلى درجة عطف أمهم وحنانها .

لقد قرأت فى أحد الكتب « أطفال بلا أسر » أنهم وجدوا أن نمو الطفل متخلف لأنه يتعامل مع مُرَبّية .

إن الطفل إذا كان فى مجتمع من أبيه وأمه وإخوته المتفاوتين فى الأعمار ، ومع جدته وجده ، فإنه ينشأ أفضل من غيره ، فالطفل الصغير يلتقط من كل جيل وهذا هو سر القرآن فى أنه قال (بنين وحفدة) .

الإنسان السوىّ هو الذى سبق له فى طفولته أن تعامل مع كل قطاعات الإنسان : الكبار والصغار ومتوسطى الأعمار وخاصة قطاع الرحمة والحنان الخاص : الأم .

إذن فالمرأة مهمتها هى التعاون مع أرقى الأجناس على الأرض وأرفعها وهو الإنسان فمهمة المرأة سكن للزوج ، وبعد ذلك حاضنة للأطفال وهذا يعطيها أعلى منزلة ومكانة فى الحياة لأن مهمتها هى أشرف مهمة فى هذا الوجود .

ويجب أن تفخر المرأة و،تعتز بمهمتها هذه كل الفخر وكل الاعتزاز .

خامساً : عقل المرأة

قال رسول الله ﷺ « النساء ناقصات عقل ودين » وقال رسول الله ﷺ « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » .

هذان الحديثان يفهمان عند كثير من الناس على غير وجههما الذى أراده رسول الله ﷺ .

فالمعنى الصحيح للحديثين ليس إهانة المرأة والحط من شأنها والتقليل من مكانتها وليس اتهامها بنقص الدين والعقل وإنما على العكس من ذلك ، يحث الحديثان على حسن معاملة المرأة والتوصية بها .

ويشرح الحديث الأول طبيعة المرأة التى خلقها عليها لمناسبة المهمة التى خلقها لها .

فالمرأة مخلوقة ضعيفة الجسم لأنها ليست مخلوقة للكدح والسعى فى طلب الرزق بعكس الرجل .

والمرأة مخلوقة عاطفية تغلب عليها العاطفة ، وهذا ليس عيبًا بل ميزة تناسب مهمتها فى الحياة .

إن قول رسول الله ﷺ « ناقصات عقل ودين » معناه أن المرأة تفعل أشياء بعاطفتها قد يرفضها العقل وذلك راجع إلى أن العاطفة عند المرأة قوية جدًا لمناسبة مهمتها فى الحياة التى تستلزم منها أن تكون فى غاية العطف والحنان مع أطفالها وأيضاً مع زوجها.

أمّا مسألة الدين فالمرأة بحكم الطبيعة التى خلق الله تعالى جسمه عليها يحدث أن تمر عليها أيام فى الدنيا لا تؤدى فيها صلاة ولا صياماً وليس هذا عيباً فيها . فالخالق الحكيم قد خلقها هكذا من أجل أن تستطيع أداء مهمتها .

إذن فحديث رسول الله ﷺ « ناقصات عقل ودين » هو فى حقيقة الأمر شرح وتفسير لطبيعة المرأة وليس انتقاصاً منها أو ذَمًّا فى حقها وإلا ما كان رسول الله ﷺ قد أخذ برأى أم سلمة رضى الله عنها فى صلح الحديبية ، وما كان قال عن الصدّيقة بنت

الصديق رضى الله عنهما « خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميّراء » وقد كان وجهها رضى الله عنها يميل لونه إلى الاحمرار .

إنّ من يفهم الحديث السابق على أنه طعن فى المرأة يكون قد أخطأ فى الفهم إذ أن المقصود أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل من المرأة والرجل مهمة فى الحياة ، وتم خلق كل منهما ليناسب مهمته .

فالرجل مخلوق للسعى وراء الرزق وذلك يستدعى أن يكون عقله أقوى من عاطفته فهو يحتاج أن يُحكّم عقله وليس عاطفته ، يستطيع تحصيل الرزق وتوفير متطلبات واحتياجات الأسرة .

أما المرأة فهى مخلوقة لكى تحنو وتربى ولأنها هى السكن ، فلابد أن تكون عاطفتها أقوى ، لكى تستطيع أن تقوم بمهمتها خير قيام .

ومن تمام الخلق ورحمة الحق سبحانه أن يكون كل مخلوق مُيَسّرًا لما خلق له « كل مُيَسرٌ لِمَا خُلِقَ له » .

والمرأة فى مهمتها محتاجة للكثير من الحنان والعطف والقليل من التفكير العقلى ، لأن الأطفال الصغار يحتاجون إلى العطف والحنان أكثر مما يحتاجون إلى العقلانية .

ولأن العطف الزائد والعقل الزائد لا يجتمعان فى أى إنسان ، فالرجل عاطفته أقل من عقله لأنه لم يخلق لحضانة الأطفال .

إن المرأة هى التى تحنو وتمسح الشقاء والتعب عن زوجها وأولادها ، وتمسح الدموع لتزرع مكانها الابتسامة والبشاشة وكل ذلك يتم بالعقل .

إذن فعاطفة المرأة أقوى من عقلها وليس معنى ذلك أن فكر المرأة وذكاءها أقل من الرجل ، ولكن العاطفة عندها سريعة وتسبق عمل العقل .

ومن المواقف المجيدة فى تاريخ المرأة المسلمة الحدث العظيم الذى وقع يوم صلح الحديبية ، ذلك أن المسلمين قد أُحرِموا واتجهوا إلى بيت الله الحرام لأداء العمرة ومعهم الهدى الذي سيذبحونه عند انتهاء العمرة والطواف بالبيت الحرام ، وحدث أن تصدى الكفار لهم ومنعوهم من دخول مكة ومن الطواف وانتهى الأمر إلى توقيع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وكفار مكة وفيه تعهد الكفار بعدم التعرض للمسلمين ولا

حلفائهم ، ولا لنشر الدعوة الإسلامية ، وكذلك لا يتعرض المسلمون لقريش ولا حلفائها ومن كان فى حمايتها .

وكان ذلك أول تعهد من كفار مكة بألا يتعرضوا للمسلمين مما يعد مكسبًا مهمًا للدولة الإسلامية فى ذلك الوقت لأن الدعوة الإسلامية وقتها كانت فى حاجة إلى حرية الرأى والكلمة ، وعدم التعرض للدعاة المسلمين بالقتل والتعذيب والأذى .

أما نشر الدين واعتناق الإسلام فإن الدين الإسلامى يملك من الأدلة والبراهين والمنطق والحجة والهدى ما يجعل كل من يستمع بصدق إلى تعاليمه يعتنقه .

لكن المسلمين وقتها لم يفهموا ذلك وأخذتهم الحمية الدينية بعد توقيع رسول الله ﷺ الصلح مع الكفار .

لأن الرسول عليه السلام بعد التوقيع أمر المسلمين أن يذبحوا الهدى ويحلوا إحرامهم ، ولكن المسلمين حينئذ كانت تدور فى صدورهم ثورة من الغضب والحمية لأن الصلح قد منعهم من الطواف ببيت الله الحرام وثورة الغضب هذه حجبت عنهم أن يروا الحكمة فى توقيع هذا الصلح وكيف أن الحق سبحانه قد جعل فيه إشارة لفتح مكة وانتصار المسلمين .

إذن فقد أغلق الغضب عقولهم ومنعهم من رؤية الحكمة فى أن الحق الحكيم سبحانه منعهم من قتال كفار مكة لأن فى مكة مسلمين يكتمون أمر إسلامهم ، ويبقون إيمانهم فى صدورهم خوفاً من المشركين ، فلو حدث القتال فى ذلك الوقت لقتل المسلمون بعضهم بعضاً وهم لا يدرون وفى ذلك جاءت الآية الكريمة من سورة الفتح :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الفتح : ٢٥) .

وقول الحق سبحانه (لو تزيلوا) معناه : لو كانوا معروفين أو مميزين أو يجمعهم مكان واحد بحيث يستطيع المسلمون تفاديهم عند نشوب القتال .

قول الحق سبحانه : ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى تقتلونهم دون

أن تعلموا أنهم مسلمون مثلكم ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ ﴾ أى عار وخزى لأنكم قتلتم مؤمنين ولهذا لم يأذن العليم الحكيم سبحانه وتعالى بالقتال فى ذلك اليوم .

يومها أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يذبحوا الهدى ويحلوا إحرامهم ، ولكن أحداً منهم لم يمتثل للأمر فدخل رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة بنت أبى أمية رضى الله عنها وهو شديد الغضب فقالت له مالك يا رسول الله ؟ فلم يرد فكررتها عدة مرات حتى قال رسول الله ﷺ « هلك المسلمون أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » فقالت أم سلمة : يا رسول لا تلمهم فإن داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبى الله : اخرج ، ولا تكلم أحداً منهم ، وانحر هَديك ، واحلق رأسك ، ففعل رسول الله ﷺ ذلك فقام المسلمون فنحروا وحلقوا .

إذن فقد أخذ رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء وأعظمهم والذى يوحى إليه من السماء أخذ برأى امرأة (أم سلمة) فى أمر أصعب الأموروأشقها وأشدها . فلو كان عقلها ناقصاً نقص ذكاء أو نقص استيعاب ما أخذ رسول الله ﷺ برأيها .

والعقل فى اللغة : مأخوذ من العقال وهو مقود الجمل الذى يمنعه من أن يسير على غير هدى ، بل يخضعه لمشيئة راكبه ، والجمل لو تركناه على هواه بغير عقال لجرى هنا وهناك كلما رأى عُشبًا انطلق إليه يميناً ويساراً فلا يصل أبداً إلى مقصد صاحبه الذى يريده أن يصل إليه .

إذن فمهمة العقال أن يحكم حركة الجمل فيسير فى الطريق السليم الموصل المنشود، فلو انحرف الجمل يساراً أو يميناً شد راكبه العقال ، فيمشى الجمل فى الطريق السليم .

هذه إذن مهمة العقل ، العقل يعقل الأمور ويكبح شهوات النفس بحيث تسير فى الطريق القويم .

وحياة الرجل وسعيه إلى الرزق يقتضي منه أن يُحكّم عقله فى كل شىء ليرتب الأشياء وينظمها ، فلو دخلت العاطفة فى ذلك لأفسدته .

وقوامة الرجل على أسرته تستلزم منه أن يكون حكيماً فى تصرفاته حتى لا يضيّع الأسرة ، وكفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول (حديث) .

إذن لو كانت عاطفة الرجل أقوى لكانت تصرفاته كلها عاطفية ويفسد البيت والأسرة والأولاد وكل شيء .

فالرجل مثلاً لو كان معه مال قليل يكفى بالكاد مصروفات البيت إلى نهاية الشهر وجاءه أحد أولاده يطلب منه بعض المال فالرجل ساعتها لن يعطيه ، لأنه يفكر بعقله ويعرف أن المال الذى معه إذا نقص منه شيء فلن يكفى المال الباقى مصروفات البيت وتحدث مشكلة ولو أصر الطفل على طلب المال ينهره أبوه وقد يضربه .

أما الأم فلو كانت مكان الأب وطلب منها ابنها أو ابنتها شيئاً لأعطته غالباً دون أن تفكر ماذا ستفعل بقية الشهر وخاصة إذا بكى الطفل أمامها وإن لم يكن معها مال قد تقترض من إحدى جاراتها لتعطى ابنها وقد تفكر فى الاشتراك فى « جمعية » إنها تتحايل حتى تأتى لأولادها بالشيء الذى طلبوه .

إذن تندفع لكى ترضى أولادها ، فقد تقترض دون أن تعرف كيف ومن أين ستقضى هذا الدّين ؟ أو كيف ستدفع أقساط الجمعية ؟ المهم عندها أن ترضى أولادها هذا هو أول الأولويات فى حياتها .

إذن فتكفير المرأة خاضع لعاطفتها وليس لعقلها . وتكون النتيجة أنها لا ترتب الأشياء ترتيباً عقلياً منطقياً فتحدث المشاكل لها ولأسرتها .

ومن حكمة الشارع الحكيم سبحانه أنه جعل القوامة للرجل والحضانة للمرأة لكى يحدث استقرار فى الأسرة وأيضاً لكى يحدث توازن فى حياة الأسرة .

فالأب يمثل العقل والمنطق والنظام ، والأم تمثل العاطفة والحنان والابتسام .

وهما كفتان لازمتان للاتزان ، وأفراد الأسرة جميعاً يفيدون من هذا التوازن .

فالأب يفيد من عاطفة المرأة ، والمرأة تفيد من تعقّل الرجل والأولاد هم الرابحون فى النهاية ، لأنهم قد استفادوا من عقل الأب وعاطفة الأم ، فيشبوا متوازنين نفسيًا وعقليًا ، وأى اختلال فى هذه المعاملة الإنسانية يؤثر دون شك على استقرار الأسرة .

سادساً : كيد المرأة

إن الحق سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٧٦) ويقول عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (يوسف : ٢٨) بعض الناس يفهمون هاتين الآيتين الكريمتين بطريقة خاطئة :

نريد أن نفهم معنى الكيد :

إن الكيد هو عملية تدبير فى خفاء ، والتدبير بخفاء لا يحدث إلا من الضعيف ، لأن الإنسان القوى إذا قدر على خصمه أو عدوه فقد يتركه ويعفو عنه لأنه بقوته يستطيع أن يأتى به ليؤذيه فى أى لحظة ، فكأن القوى واثق من قدرته وقوته على عدوه ولذلك فهو لا يهتم ، وقد يترك أعداءه لعلهم يتوبوا .

أما الإنسان الضعيف إذا حانت له فرصة على عدوه فإنه لا يتركها أبداً لماذا ؟ لأنه غير واثق من مجيء فرصة أخرى بسبب ضعفه وعجزه فكأن الضعيف لإحساسه بعجزه متى حانت له فرصة القضاء على عدوه انتهزها لفوزه ، ولا يعفو ولا يصفح أبدًا لأنه موقن تماماً أنه غير قادر على الانتقام من عدوه فيما بعد .

ولأن المرأة ضعيفة الخِلقة فكيدها يكون شديداً وعظيماً ، إنها إن تمكنت من عدوها فلا ترحمه لأنها لا تضمن تكرار الفرصة مرة أخرى .

والمرأة لكونها ضعيفة فإنها إن أرادت ارتكاب جريمة فهى لا ترتكبها بالمواجهة ولابالعنف ، لكن بالتحايل والتدبير والمكيدة كأن تضع السُّم لعدوها أو تحتال عليه بطريقة بحيث يقوم غيرها بالقضاء عليه هذا هو الغالب على النساء ، وما يخرج عن ذلك ليس إلا شذوذاً عن القاعدة ، والشذوذ لا يُقاس عليه .

سابعاً : الشهادة

من المسائل التى كثر الجدل حولها من أعداء الإسلام مسألة شهادة المرأة ، حتى وصل الأمر ببعض المشتغلات بالإعلام أن كتبن يقلن كيف لا تساوى شهادة المرأة المتعلمة الحاصلة على الدكتوراه أو الماچستير شهادة بواب العمارة التى تسكن فيها وقد يكون أميًا لا يقرأ ولا يكتب ؟ وكيف أن شهادتها تساوى نصف شهادة البواب الأمى ؟

وحقيقة الأمر أن هذا الكلام نابع من منطق خاطىء فى الأساس ، لنفهم أولاً عن الله تعالى قبل أن نتكلم كلاماً يؤهلنا لغضب الله وسخطه .

إن الحق سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل يقول : ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ** ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٢) .

لنفهم أولاً معنى كلمة (شهادة) إن كلمة (شهادة) مأخوذة من (شهد) أى (رأى) أنت رأيت مشهد أى شاهدته بعينيك واقعاً أمامك وهذا المشهد ليس محتاجاً إلى علم أو درجات علمية أو ماچستير أو دكتوراه ، إنه فقط يحتاج إلى (عين) تشهد وإلى كلمة صدق تقال . وكل ما يقال غير ذلك هو كلام غير ذى موضوع لأن المحاكم لا تقوم بتجارب معملية أو أبحاث علمية حين تطلب شخصاً للشهادة فى قضية معينة أو حادثة وقعت وشاهدها بعينيه إن خلق الله جميعاً متعلمين أو غير متعلمين ، متساوون تماماً من هذه الناحية أى القدرة على الشهادة .

إن المسألة ليس فيها ذكاء أو رجاحة عقل إنها مسألة صدق وأمانة نقل .

ونحن لو نظرنا إلى طبيعة المرأة نجدها مخلوقة على الستر ممنوعة من مخالطة الرجال .

ولنضرب مثلاً يوضح الموضوع ويجلّيه :

لو وقعت مشاجرة مثلاً فى الشارع وكانت هناك امرأة تمر بالقرب منها ماذا يحدث من المرأة عادةً ؟

إن المرأة بالتأكيد تسرع بالابتعاد عن مكان المشاجرة ، وتنأى بنفسها عن الموضوع خوفاً على نفسها واتقاءً للأذى ، حتى لا تصاب بسوء ، نريد تفسيراً من المرأة ذاتها لماذا يحدث منها ذلك ؟

الجواب هو : لأنها مخلوق ضعيف فلا قدرة لها على المنازلة والمشاجرة ، ولأنها مخلوق عاطفى نفسها تتأثر بسرعة من مشاهد لضرب والعنف والدماء ولأنها لطبيعتها الأنثوية تخاف على نفسها من الاقتراب من المشاجرة حتى لا يحدث احتكاك بينها وبين الرجال مما يعرضها لخدش حيائها وكرامتها ، إنها تبتعد عن المشاجرة حتى لو كان زوجها هو الذى يتشاجر أو أخوها ، إنها تبتعد وتستغيث بالرجل .

إذن فشهادة المرأة على هذه المشاجرة لن تكون دقيقة لأنها كانت بعيدة .

إن المرأة بطبيعتها تبتعد عن المشاكل ، لأن هناك رجلاً مسئولاً عنها هو الذى يعولها ويتصدى لهذه المشاكل ويحلها .

إذن فهذه الأسباب وغيرها من الأمور المتعارضة مع طبيعة المرأة التى تجعل المرأة غير صالحة للشهادة الكاملة ، لأن المرأة إذا عرفت بعض التفاصيل تغيب عنها تفاصيل أخرى ، لأنها بطبيعتها تبتعد عن المشاكل وفى قول الحق سبحانه : ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ** ﴾ (البقرة : ٢٨٢) توضيح للمسألة ، فالضلال هنا يأتى من عدم دقة المشاهدة ، ومن حرص المرأة على الابتعاد عن المشاكل والمشاحنات أو الاشتباكات التى يحدث فيها العنف .

ثامناً : الميـــراث

مسألة ميـراث المرأة من المسائل التى تكلم فيها الكثيـر من الناس وخاصة أن أعداء الإسلام أثاروها أكثر من مرة ظنًا منهم أنهم وجدوا فرصة للطعن على المسلمين .

نقول لهؤلاء وأولئك أحسنوا الفـهم عن الله إن الحق سبحانه يقول : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء : ١١) .

ويقول عز من قائل : ﴿ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النسـاء : ١٧٦) ويقـول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ (الأحزاب : ٣٦) إننا كمؤمنين مكلفون بطاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ قال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٣٢) .

وعلة الطاعة ليست فى الأمر ذاته ، وإنما فيمن أصدر هذا الأمر ، إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قال وهو الذي أمر وهو العلـيم الحكيم المطاع فى كل أمر لا خيار إذن أمام أحد لأن يوافق أو لا يوافق لأنك إذا دخلت فى الدين فأنت ملزم بطاعة أوامر هذا الدين والابتعاد عن نواهيه .

ورغم ذلك فإننا نقـول لأعداء الإسلام : إنّ هناك أنظمة غـير إسلاميـة تحرم المرأة تماماً من الميراث أو تعطى الميراث للأخ الأكـبر وحده ، فلماذا لا تطعنون فى هذه النظم وتكتفون دائمـاً بالطعن على أهل الإسلام ؟ القضية كلها أبسط من أن نشـغل بها وقتنا لأن المرأة المسلمة تعيش حياتها كلها فى رعاية رجل مسئول عنها قبل الزواج يكون الأب هو المسئـول عن ابنته ، فـإن فقـدت أباها أنفق عليهـا أخوها أو عمـها أو خـالها وإذا تزوجت انتقلت مسئوليتها إلى رجل آخر هو الزوج .

فالزوج فى الشريعة الإسلامية هو المكلّف وحده بالإنفاق على زوجته وأولاده .

إذن فالمرأة ليست مسئولة شرعاً عن الإنفاق على أحد مهما كانت درجة قرابته منها، إنها فى أسوأ الافتراضات تكون مسئولة عن نفسها فقط .

أما الرجل فله وضع مختلف تماماً ، فهو دائماً مسئول عن نفسه وعن غيره ، إنه مسئول شرعاً عن أمه وإخوته وزوجته وأولاده .

إذن فالمرأة معولة دائماً ، أى أن هناك دائماً من يعولها قبل الزوج وبعد الزواج ثم يعولها أولادها بعد ذلك ، وهى إذا ورثت نصف نصيب أخيها فهو عدل من الله الحكم العدل لأن أخاها عندما يتزوج سيكون مسئولاً عن زوجته ينفق عليها .

أما هى فعندما تتزوج يكون زوجها هو المسئول عنها وعن الإنفاق عليها . إذن فالمرأة هى الرابحة هنا لأنها تستطيع أن توفر نصيبها من الميراث وتدخره لأنها ليست ملزمة بالإنفاق على أحد منه ولا حتى على نفسها ، إنها مسئولية الزوج .

وإن لم تتزوج المرأة فإن نصيبها من الميراث يكفيها لأنها حينئذ لن تكون مسئولة عن نفسها ، بينما أخوها يكون مسئولاً عن الإنفاق على زوجته وأسرته ، وإن لم يتزوج يكون مسئولاً عن الانفاق على أمه وإخوته .

ولنضرب مثلاً يزيد الأمر وضوحاً وجلاءً :

لو كان عندى مثلاً ولد وبنت ، وأنت عندك ولد وبنت فكل من الابنتين أخذت ثلث الميراث وكل من الولدين أخذ ثلثى الميراث (حسب الشريعة) .

ابنتى تزوجت ابنك ، وابنتك تزوجت ابنى .

تكون النتيجة أن يصبح لكل عائلة ميراث كامل ، وتكون المسألة قد تساوت .

إن الحق سبحانه وتعالى حكيم عادل ، إنه سبحانه هو العدل وحينما يخلق خلقاً ويكلفه بمهمة فإنه يرزقه ويعطيه ما يعينه على أداء هذه المهمة وكل مخلوق على قدر مسئولياته وتبعاته ولذلك أعطى الله سبحانه كل واحد على قدر المسئولية التى يتحملها .

إذن فليس فى المسألة ظلم للمرأة وليس فيها تفضيل لأحد على آخر ، لأن الله سبحانه هو رب الجميع ، والجميع أمامه سواء .

تاسعاً : عمل المرأة

ما الذى حدث ؟ لقد أخذت القضية مساراً خاصاً وثارت شبه معركة بين المرأة والرجل فلا المرأة قنعت بمهمتها ودورها فى الحياة ، ولا الرجل رضى بمهمة المرأة ودورها الذى خلقها الله من أجله .

لقد دخل كل من الرجل والمرأة تنافس شديد ومعركة غير متكافئة وهذا هو الذى أوجد مشكلة ليس لها ما يبررها .

ولم تكن لتوجد لو أن كلاً من الرجل والمرأة رضى بما قدره الله له فى الحياة .

لقد أصرّت المرأة على أن تزاحم الرجل فى العمل ظنًا منها فى أن ذلك مساواة بينهما فى الحقوق والواجبات .

والرجل أيضاً استسلم لمزاحمة المرأة له فى العمل بل ودفعها إلى ذلك فماذا كانت النتيجة ؟

الاختلال أصاب المجتمع ، وبعض الناس يقول إن الضرورة اقتضت خروج المرأة للعمل ، ونحن لا نتحدث هنا عن وضع شاذ بل عن الأمور الطبيعية .

إن عمل المرأة أضاع الأجيال الجديدة ، لقد افتقد الأطفال حنان الأم ورعايتها مما أصابهم باضطراب نفسى انعكس على سلوكهم فى شبابهم .

يقول البعض إن دور الحضانة حلّت هذه المشكلة وأن المرأة يمكنها أن تترك أطفالها فى دور الحضانة فى رعاية مُشرِفات مثقفات .

نقول لهم : إن هذا الكلام لا يتفق مع الواقع فلن تستطيع امرأة أن تعطى حنانها على عدد كبير من الأطفال ، إنها إذا أعطت حنانها وعطفها لطفلين أو ثلاثة فستُهمل بقية الأطفال .

كما أنّ عاطفة المشرفات مهما بلغت درجة الثقافة والتدريب لديهن لن تصل أبداً إلى درجة العطف والحنان الطبيعى عند الأم .

لقد وضع الحق سبحانه وتعالى فى قلب الأم مقومات الحب والاهتمام والرعاية الكافية للطفل ، ولا يمكن لأى امرأة أن تعطى أطفال غيرها نفس الحنان الذى تعطيه لأولادها .

إنّ الحيرة النفسية التى أصابت أجيال الشباب فى كل بلاد العالم منشؤها الابتعاد عن حنان الأم وملازمتها لأولادها .

فالطفل الذى حُرم من ذلك الحنان ينشأ قاسياً لا يحس بالانتماء ، روابط الأسرة لديه تفككت . لا يعرف شيئاً عن القيم الاجتماعية والتضامن والإيثار وغير ذلك من الأخلاق القويمة .

وفضلاً عن ذلك كله نكون قد حَمّلنا المرأة أكثر من طاقتها فهي مكلفة بأعباء المنزل وأعباء العمل ، فلا تجد وقتاً لإعداد الطعام ولذلك نجد عدداً من الزوجات العاملات يقمن بإعداد الخضار فى أماكن العمل ، مشغولات وهن فى العمل بمتطلبات البيت من طعام ورعاية وغير ذلك من الأمور .

الواحدة منهن تعود من عملها مُتعبة لتجد أنها لابد أن تجهز الطعام وتحل مشاكل أولادها التى حدثت نتيجة غيابها عن المنزل ، فإذا انتهت من ذلك ومن بقية شئون المنزل يعود الزوج ليجدها مكدودة مرهقة فى غاية التعب ، والزوج له مطالب وأهمها أن يجد فى بيته سكناً ومودة وامرأة تستقبله ببشاشة تُزيل عن نفسه ما علق بها من أوشاب العمل وتعب النهار وشقائه ولكنه بدلاً من ذلك يجد زوجته مرهقة لا هِى سكن ولا هِى مستريحة الأعصاب وغير قادرة أن تستقبله بابتسامة .

مهمتها إذن قد فسدت ، كل هذا لأننا خرجنا عن المفهوم الحقيقى لمهمة المرأة .

بعض الناس يقولون : أن خروج المرأة لعمل فيه تخفيف عن الرجل وأنها تقوم بواجبها كسكن للزوج وتؤدى رسالة المودة والرحمة وإلى جانب ذلك تخفف عن زوجها وتعينه على زيادة الدخل من أجل رفع مستوى المعيشة فى الأسرة .

نقول لهؤلاء أنتم تخلطون الأمور وتعكسون منطق الأشياء فالمرأة فى الواقع بخروجها إلى العمل لم تخفف من شقاء الرجل فالرجل ما زال فى تعبه إنه ما زال شقيّا ، والجديد الذى حدث هو أن المرأة ازدادت شقاءً .

فالرجل لم يأخذ (نصف عمل) فى الخارج إنه مازال يعمل عمله ، وإذا تعللت المرأة بمشاركة الزوج فى عمله لتزيد الدخل للوصول إلى مستوى حياة أكبر ، نقول لها: ليس المفروض فى الإنسان الذى له قيم سماوية أن يفرض مستوى الحياة أولاً وبعد ذلك يحمل الدخول عليه . لا المفروض أنه على قَدْر دَخله يحدّد حياته والذى يُتعب الناس هو أنهم يحددون أولاً مستوى الحياة ثم إذا لم يكفِ الدخل يبدأون فى البحث عن الأبواب الخلفية وقد ينحرفون أو يرتشون .

إن الإنسان المؤمن ينبغى عليه الرضا بالقضاء والقدر والتسليم بما قسمه الله له فى الرزق وينظم حياته حسب ما يأتيه الله من الرزق ، لا أن يخالف شرع الله ليزيد الرزق ، هذا عكس للقضية وتسطيح لها .

إننا لو نظرنا إلى عمل المرأة لأشفقنا عليها ، لأن مهمتها ستكون أصعب وأشق من مهمة الرجل ، لأن الرجل يعمل ويسعى فى سبيل الرزق ثم يرتاح بعد ذلك .

أما المرأة فتعمل خارج البيت وتعود لتعمل داخل البيت وأيضا تعانى من الحمل والولادة والإرضاع ، والمرأة بطبيعتها مخلوق ضعيف ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان: ١٤) ففى هذه الآية الكريمة يُلفتنا الحق عز وجل إلى أن المرأة بحكم خلقها ضعيفة ، وأن الحمل يزيدها ضعفاً على ضعف .

إذن فهذه مشقة تتحملها المرأة إضافةً إلى مشقات العمل فى البيت والوظيفة فتزداد المرأة إرهاقًا وتعباً وشقاء . فهى إذا وضعت طفلاً تحتاج إلى فترة طويلة تلازم فيها الفراش عدة أسابيع بعد الولادة حتى تستعيد قوتها ، ثم يأتى الطفل محتاجاً أيضاً إلى رعاية وعناية من رضاعة وتغيير مستمر لملابسه الداخلية والخارجية ، وإعداد الطعام له فى فترات متقاربة . تذهب المرأة إلى عملها وقلبها مشغول على طفلها ، فلا تستطيع أن تعمل شيئًا ولا أن تفكر تفكيرًا سليماً ولا أن تعطى انتباهها للعمل لأنها مشغولة بشيئين ، والحق سبحانه وتعالى لم يجعل لأحد منّا قلبين فى جوفه .

إذن السكن هنا وهو المهمة الأساسية للمرأة قد ضاع ، وضاع معه الاستقرار والسلام فى البيت والأسرة .

ولقد وضع الإسلام شروطاً لعمل المرأة وهى :

١ ـ عدم وجود العائل أو عجزه .

٢ ـ الخروج مع محرم .

٣ ـ عدم مزاحمة الرجال أو الإختلاط بهم .

٤ ـ ملائمة طبيعة العمل للمرأة .

والحق سبحانه وتعالى يحدثنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع ابنتى شعيب عليه السلام ، فيحكى أن موسى عليه السلام بعد ما خرج من مصر واتجه إلى فلسطين وعندما ورد ماء مدين ووجد عليه أُمة من لناس يسقون ووجد امرأتين تذودان (أى تمنعان ما ترعيان عن الماء) فلأى شىء خرجتا إذن ؟

قال لهما موسى عليه السلام : (ما خطبكما) ، (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أى : حتى ينصرف الرعاة عن البئر .

ومعنى ذلك أن المرأتين وقفتا بعيداً لا تسقيان حتى ينتهى الرجال من سقى ماشيتهم وبعد ذلك يخلو البئر .

إذن فالمرأتان أخذتا الضرورة بالقدر المناسب ، فليس معني الضرورة أخرجتهما أن يتناسيا نوعهما ، فهما يدركان أنهما نوع لا يصح أن يحتكّ بالنوع الآخر ، ثم علّلتا سبب الخروج بقولهما (وأبونا شيخ كبير) فكأن (أبونا شيخ كبير) تبرير لهذا العمل .

إذن فالآيتان الكريمتان تحددان أن الضرورة قد تلجىء المرأة للعمل ولكن حين تخرج لا تنسى نوعيتها ،ولا تختلط بالرجال .

إن الإسلام لم يترك شيئاً إلا وضع له نظاماً وضوابط فالمرأة لا تعمل إلا للضرورة . كأن لا يوجد من يعولها أو ينفق عليها ، وبشرط عدم المزاحمة والاختلاط مع الرجال أو العمل فى أوقات غير متناسبة مع طبيعة المرأة . إن المجتمع المسلم يجب أن يساعد المرأة على قضاء ما تحتاج إليه بلا مقابل .

الواقع يقول : إن خروج المرأة للعمل قد أفسد الحياة فعمل المرأة يتسبب فى وجود خواء وفراغ قاتل فى البيت . إنهم يقولون : إن المرأة نصف المجتمع فكيف نعطل المجتمع عن العمل .

ونقول لهم : عمل المرأة تسبب فى إفساد كل المجتمع وليس النصف . فالأطفال يحتاجون إلى أمهاتهم .

والرضاعة الطبيعية أهم شىء فى تكوين الطفل والعالم كله الآن ينادى بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية بعد أن ذاقوا مرارة الرضاعة الصناعية واللبن الصناعى .

إنَّ تفرغ الأم لأولادها يجعلهم يحسون بالأمان طوال حياتهم .

إن الطفل وهو يرضع من ثدى أمه يصير جزءًا منها ، فاللبن الذى تكوّن منه جسم الطفل وخلاياه وأجهزته هو نفسه الذى تكون منه جسم وخلايا وأجهزة إخوته فى الرضاع .

إذن فالرضاعة الطبيعية لا يمكن تعويضها بأى ألبان صناعية . رحم الله أمير الشعراء الذى قال :

لَيسَ اليَتيمُ مَن انْتَهَى أَبَواهُ ... منْ هَم الحَيَاةِ وَخَلّفَاهُ ذَليلاً
إِنَّ اليَتيمَ هُو الذى يَلْقَى لَهُ ... أُمّاً تَخلّتْ أو أَبًا مَشغُولاً

إن المرأة إما أن تكون أُمّاً وربّة بيت أو امرأة عاملة .

والأم التى تتخلى عن أولادها بخروجها إلى العمل تذوق نتيجةِ ذلك جحود فى عقود أبنائها عندما يكبرون لأنهم فقدوا الحنان والانتماء فى صغرهم .

إن أحداث الحياة ستضطر الناس لكى يرجعوا إلى الحق ويعرفوا أن مهمة المرأة تكون فى زوجها وأولادها ، وأن عملها داخل بيتها أفضل وأهم ملايين المرات من العمل خارج البيت .

يقول بعض الناس إن المرأة يجب أن تعمل حتى تساهم فى بناء المجتمع ونقول لهم: أى مجتمع هذا الذى يُبنى على أطلال الأسرة وعلى ضياع وخراب الأجيال الجديدة وفسادها ؟

عاشراً : فضل الأم

اقتضت حكمة الحق سبحانه وتعالى أن تكون العاطفة عند المرأة أقوى من العقل ولذلك نجدها تسهر الليالى دون نوم إلى جانب طفلها المريض وتعيش وتتحمل لكى تبقى مع زوجها وأولادها فى أوقات المحن والأزمات ونجدها تستطيع احتمال مشقات وصعوبات تربية الأولاد .

ونحن إذا نظرنا إلى تضحيات الأم فى سبيل سعادة أولادها أن نحكم العقل فإنها ستقبل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى خلق عاطفة المرأة قوية من أجل المهمة التى ستؤديها المرأة ، وهى مهمة جليلة وثقيلة ولذلك كافأها الله سبحانه بأن جعل الجنة تحت أقدامها لو أحسنت القيام بمهمتها .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ فقال له الرسول ﷺ أمك فقال الرجل ثم مَنْ ؟ فقال الرسول ﷺ ثم أمك فقال الرجل ثم من ؟ فقال الرسول ﷺ ثُمّ أمك فقال الرجل ثم من ؟ قال الرسول ﷺ ثم أبوك .

ومرض أحد شباب الصحابة واسمه (علقمة) واشتد مرضه وأرسلت زوجته إلى النبى ﷺ أن زوجها يعانى سكرات الموت فلرسل النبى ﷺ إليه بلال بن رباح وعمار بن ياسر وصُهيبًا الرومى لكى يلقنوه الشهادة ، وعندما ذهبوا إليه وجدوه فى النزع الأخير فأخذوا يلقنونه الشهادة ، فلم يستطع أن ينطقها ، فعادوا إلى النبى ﷺ وأخبروه فقال النبي ﷺ هل من أبويه أحدٌ حىّ » ؟ قيل يا رسول الله : له أم كبيرة السن فأرسل إليها النبى ﷺ من يقول لها ، إذا قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ فاذهبى إليه ، وإلا فانتظريه فى المنزل حتى يأتى إليك ،فقالت المرأة نفسى لنفسه الفداء ، أنا أحق بإتيانه ثم قامت فتوكأت على عصا وأتت إلى رسول الله ﷺ وسلمت فرد النبى ﷺ السلام عليها وقال لها : يا أم علقمة أصدقينى القول ، وإن كَذبتنى جاء الوحى من الله بالحقيقة ،

كيف كان حال ولدك علقمة ؟ فقالت يا رسول الله كان كثير الصلاة كثير الصيام كثير الصدقة فقال النبى ﷺ فما حالك معه ؟ قالت يا رسول الله أنا عليه ساخطة قال ﷺ ولم ؟ قالت يا رسول الله كان يؤثر زوجته علىّ فقال النبى ﷺ إنّ سخط أم علقمة على ولدها حجب لسان علقمة عن الشهادة ثم قال رسول الله ﷺ يا بلال : انطلق واجمع لى حطباً كثيراً فقالت أم علقمة ، وما تصنع به يا رسول الله ؟ فقال ﷺ سنحرق ابنك فى النار فقالت أم علقمة يا رسول الله ، إنه ولدى ولا يحتمل قلبى أن يحرق بالنار فقال لها النبى ﷺ : يا أم علقمة عذاب الله أشد وأبقى ونار الدنيا أهون من نار الآخرة إن أردت أن يغفر الله له فارضى عنه ، فوالذى نفسى بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته مادمت عليه ساخطة ، قالت يا رسول الله فإنى أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرنى من المسلمين أنى قد رضيت عن ولدى علقمة فقال رسول الله ﷺ : انطلق إليه يا بلال فانظر هل يستطيع أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله أم لا ؟ فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس فى قلبها حياءً منى . وانطلق بلال فسمع علقمة وهو ينطق بالشهادة ومات علقمة فى يومه فحضره رسول الله ﷺ وحضر دفنه ، وصلّى عليه ، ثم قام على قبره فقال : يا معشر المهاجرين والأنصار : مَن فضّل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله عز وجل ويحسن إليها ويطلب رضاها فرضى الله عز وجل فى رضاها وسخط الله عز وجل فى سخطها .

وصعد النبى ﷺ المنبر فى أحد الأيام فلما رقى عتبة قال : آمين ، ثم رقى أخرى فقال : آمين ، ثم رقى عتبة ثالثة فقال : آمين ، ثم قال « أتانى جبريل عليه السلام فقال : يا محمد تَعِس مَن أدرك رمضان ولم يغفر له ، قل : آمين فقلت : آمين ، قال جبريل : تعس من ذُكرت عنده فلم يصلّ عليك ، قل : آمين فقلت : آمين ، قال : تَعِس من أدرك أبواه أو أحدهما ولم يدخلاه الجنة ، قل : آمين فقلت آمين » .